مجلة المجمع العلمي

مجلة المجمع العلمي

فصلية محكمة أنشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

الجزء الأول . المجلد الثاني والستون

١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

نظرية التلقي وأثر التراث النقدي العربي في النظريات الالمانية الحديثة

الدكتور عبدالقادر جبار
كلية الآداب - جامعة بغداد

الملخص :

لم تذكر الوثائق أو المدونات التي كتبت بشأن نظرية التلقي الألمانية بشكل مؤكد ان هناك ما يشير الى ان تلك النظرية او النظريات كما يطلق عليها بعض النقاد قد تأثرت أو نهلت من التراث النقدي العربي ، لكن هذا الغياب في التأكيد لا يمنع من اقامة مقاربة نظرية أو تطبيقية بين ما طرحه النقد العربي القديم وما طرحته نظرية التلقي الألمانية ، لعل الباحث يكتشف أو يكشف من خلال المقاربة مقدار وحجم ونوع العلاقة بين تفوهات نقدية متناثرة هنا أو هناك في النقد العربي القديم بشأن التلقي والمنظومة الفكرية والنظرية للتلقي الحديث كما طرحه المنظرون والنقاد الالمان ليتمكن من خلال هذه المقاربة من تتبع الأثر ان وجد وتأطيره بصيغة تطورية في حركة النقد والتواصل بين القديم والجديد في الفكر الانساني ، ولكي يقيم هذا التواصل كان على الباحث تتبع العلاقات بين الشرق والغرب في مراحلها المختلفة وتأصيل تلك العلاقات في جوانبها التكاملية منطلقا من اهتمام الغرب بالشرق وما تشكّل من صورة نمطية في الثقافة الغربية بشأن الآخر لاسيما اذا أدركنا ان الفكر العربي الاسلامي

كان قد أدى وظيفة مهمة في الحضارة الانسانية ، سواء أكان ذلك من خلال ما أنجزه علماؤه في المجالات العلمية والادبية المختلفة أم من خلال توسطه المكاني والزماني بين الحضارات المختلفة ، وفي هذا الصدد تشير المدونات التاريخية الى أن القرون الوسطى شهدت انتقالا كبيرا للمنجز الحضاري الانساني من الشرق الى الغرب ، وان الحضارة الاوربية الحديثة لم تبدأ الاّ من خلال ما حمل من ذلك المكان اليها ومن الأندلس عبر القوافل التجارية أو الاحتكاك الحضاري المباشر ، وقد نوه الى ذلك عدد غير قليل من المؤرخين والمفكرين والفلاسفة في الغرب .

من هذا المنطلق فان الأفكار الأساسية لكثير من النظريات والفلسفات التي طرحها الغربيون قد تجد لها أصولا في التفوهات الفكرية والنظرية والفلسفية في الشرق ومن تلك النظريات نظرية التلقي الألمانية وهذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه ومحاولة اثباته بالقرائن المتوفرة في ذاكرة المدونات القديمة والحديثة .

المقدمة :

الأثر المشرقي :

لم يكن الشرق غائباً عن الذاكرة الأوربية وتأملاتها بشأن الحياة والموقف الكوني والعلاقة مع الخالق وكان الباحثون والنقاد والمؤرخون المحدثون في أوربا طالما رددوا مقولة تؤكد "ان الغرب وليد الشرق "[1] وهم يشيرون بذلك الى المنجز الحضاري والروحي للشرق وما أحدثه من تحول في حياة تلك القارة لاسيما بعد أن دخلت الأديان اليها ، وما توجه دخول الاسلام ، من نقل حضاري اسلامي الى الغرب ، وتذكر المدونات التاريخية : إن الأديان التي كان الشرق مصدرها استطاعت ان تعمق الصلة الروحية بين الحضارات الغربية المتعاقبة والشرق الى الحد الذي جعلت من الغربيين يتجهون الى الشرق مباشرة للسيطرة عليه وذلك بعد أول شعور بالتفوق العسكري والحضاري ، وفي الاتجاه ذاته عمد العرب الى استيعاب الحضارات الغربية والشرقية بعد استقرار الدولة الاسلامية ونشر الدين الجديد وتذهب الدكتورة انصاف الربضي الى ان العرب " اخذوا بالأحتكاك بحضارات قديمة هي الحضارة الاغريقية والرومانية والهندية والفارسية فترجموا علوم الأقدمين ، وأقبلوا عليها بشغف وحب حتى هضموها ، ثم أفرزوا

---

[1] غوستاف لوبون – حضارة العرب – تر – عادل زعيتر – مطبعة البابي الحلبي – القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٦ .

حضارة عربية اسلامية تناولت شتى صنوف المعرفة ، كانت الأساس للنهضة العلمية والحضارية الحديثة في العالم "[٢]

ان هذا الاطار العام لعلاقة الشرق بالغرب يتضمن تفاصيل كبيرة تتحدث عن مستويات التأثير والتأثر بين الحضارات الانسانية على مر التاريخ واذا كان موضوعنا علاقة الفكر العربي وأثره في تطور الفلسفة والفكر لدى الألمان فلا بد من العودة الى البدايات الأولى ، وهذه البدايات تكمن فيما وثقه الألمان بشأن أولى محاولات الوجود العربي بعد الاسلام وذلك من خلال عشور المؤرخين والآثاريين الالمان على عملات عربية من سمرقندسكت في عامي ٣٠١ و ٣٠٢ من الهجرة في منطقة ماتيس على نهر الراين.[٣]

كان ذلك الاكتشاف قد اشار الى وجود علاقة مباشرة بين العرب والالمان في العصر العباسي وانهذه العلاقة لم تتخذ اطارها الرسمي بين دولتين بل ربما اتخذت اطارها الشعبي .

أما في الجانب الثقافي وما يتعلق باللغة العربية فقد عرفها الغرب الأوربي بشكل مباشر واطلع عليها بعد دخول العرب الى الأندلس وبناء

---

[٢] انصاف الربضي – علم الجمال بين الفلسفة والابداع – دار الفكر – عمان -٢٠٠٧- ص٦٢ .

[٣] زغريد هونك وآخرون – العرب والمانيا – نقلها الى العربية مصطفى ماهر – دار صادر – بيروت -١٩٧٤ ص٤٨ .

الحضارة الاسلامية في تلك المنطقة التي تعرف اليوم (اسبانيا والبرتغال) ، أو شبه جزيرة ايبريا .

ولم يكتف العرب بنقل حضارتهم ولغتهم الى الغرب من خلال وجودهم في الأندلس بل أسهموا بنقل الحضارة الاغريقية الى هناك ايضا ، وقد أكد هذه الحقيقة ج . ريزلربقوله : "لقد نقل العرب الى أوربا الغربية التراث العلمي والفلسفي للاغريق ، واستطاعوا بذلك تغيير الافق الثقافي للعصور الوسطى وأن يتعمقوا الى ابعد حد في الفكر والحياة الاوربية ".[٤]

واذا كان العرب قد استطاعوا التوسط بين الغرب والاغريق فانهم نقلوا الحضارات الشرقية (الهندية والصينية) الى الغرب أيضا كما أن حضارتهم هي الاخرى قد توزعت على الغرب والشرق معا حاملة التطور والابداع ، والمنجز الجديد ، ولهذا يمكن عد الدور العربي الاسلامي المساهم المباشر في دفع الحياة الغربية نحو التطور والاندماج بالحضارة التي كانت قائمة انذاك ويذهب غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب الى القول : " لم يكن من كاتب يمارس هذه المهنة أو تلك الاّ ومارس بشكل اساسي حرفة النقل عن العرب ، وقد كان من تلامذة العرب أو النقلة عنهم كل من روجيه باكون ، وليوناردوبين ، وارمان دوفيلانوف ، وريموند لول ، وسان توما ، والبرت الكبير ، والفونس العاشر ملك كاستيلا ، وكان البرت الكبير من اتباع ابن سينا وسان توما من اتباع ابن رشد ".[٥]

---

(٤) Risler la civilissation des arab aptite p231

(٥) غوستاف لوبون – ص٩.

وقد تأثر الاوربيون عامة والالمان خاصة بالعرب في الجوانب الثقافية والفكرية بعد قيام الدولة الاندلسية اذ انتقلت مضامين وقوالب الشعر العربي الى الشعر الاوربي وكان شعر الغزل العربي من أشد المؤثرات في الادب الالماني اذ تعلم الالمان شعر الغزل الذي كان منتشرا في قصور الامراء العرب وعرف عندهم نمط الشعر الغزلي باللغة الالمانية واطلقوا عليه تسمية (المينيزانج) ، وقد جاء هذا النمط الشعري من شعراء الطروبادور في جنوب فرنسا وهو الشعر المتأثر أصلا بشعر الغزل العربي .

كما أثر الشعر العربي في بنية الشعر والثقافة الاوربية والالمانية اذ انتقلت القافية الى صلوات بعض الطوائف اليهودية والى الاناشيد الكنسية في الكنيسة الشرقية الرومانية ، وبعد ذلك سيطرت القافية على الشعر الاوربي حاملة معها بعض اوزان الشعر العربي وقوالبه ، ويلاحظ ذلك بشكل جلي في أشعار جوته وموريكة وريلكه .[٦]

ومن مظاهر انتقال الحضارة العربية الأخرى في مجال الفنون والاداب انتقال الة العود الى الموسيقى الالمانية وكلمة العود عربية معناها الخشب وتلفظ باللغة الالمانية Laute وهو الاسم نفسه باللغة العربية اضيفت اليه اداة التعريف وهناك كلمات اخرى تشير الى احتفاظ اللغة الالمانية بثروة من اللغة العربية مثل مفردة الصفة ومفردة الديوان .[٧]

---

[٦] زغريد هونكه واخرون - ص٥٢ .

[٧] نفسه - ص١٤٩ .

لم يكن بالامكان حدوث هذا الأثر العربي لو لا وجود احتكاك مباشر بين العرب والألمان وكانت المدونة العربية واحدة من أهم عناصر ذلك الاحتكاك .

المدونة العربية في أوربة :

بعد سقوط الأندلس تفرقت في انحاء أوربا المدونات الأدبية والعلمية العربية وحصل بعض المهتمين باللغة العربية على مخطوطات تعد في غاية الأهمية في جانبها العلمي والثقافي والديني ، وكانت تلك المخطوطات هي الأساس الذي أنشأت عليه أوربة مهمة تعلم اللغة العربية في مرحلة ما قبل بواكير النهضة الحديثة ، اذ كانت السلطات الأوربية تفرض على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تحضر معها بعض المخطوطات العربية ، هذا فضلا على قيام تلك السلطات بارسال مبعوثين لشراء الكتب من البلاد العربية بعد النهضة في أوربا ويذكر المؤرخون في هذا الصدد ان فريدريش فيلهم الرابع ملك بروسيا أرسل (ريتشارد ليبسيوس) عام ١٨٤٢ م ، وبعده (هنريش بيترمان) عام ١٨٥٢ لشراء المخطوطات العربية من مصر الأمر الذي مكّن الألمان من وضع أوسع فهرس للمخطوطات العربية في جامعة برلين ، وشرعت بطباعتها ونشرها وفهرستها على نطاق واسع ، ولم تكن تلك الفهرسة الاّ انطلاقة كبيرة لدراسة الأدب العربي ، والدين الاسلامي حيث قام المترجمون الألمان بترجمة القرآن الكريم أكثر من (١٤) مرة وهي أعلى نسبة من الترجمات في اللغات الأوربية .

كانت تلك الانطلاقة نتاج تاريخ طويل من الجهود الترجمية في أوربا اذ يذكر كتاب (مبادئ اللغة العربية) المنشور باللغة الألمانية والمحفوظ في

جامعة فرايبورغ ومكتبة نيويورك : إن أول عملية تجميع للمدونات العربية في أوربا بدأت بعد مرحلة تجميع المدونات الخاصة باللغات الكلاسيكية مثل الاغريقية واللاتينية ، اذ يمكن عد الأعوام من (١٤٦٣- ١٤٩٤م) بداية لمعرفة الجمهور الأوربي على اللغة العربية والثقافة العربية أي المرحلة التي أعقبت سقوط الأندلس ، ففي تلك الأعوام عمد (جيوفاني بيكوديللا ميراندولا) وهو من المبشرين بمبادئ الأنسانية الى تعليم اللغة العربية لعدد من الأوربيين في ضوء المدونات العربية التي كانت محفوظة في الاندلس ، وكانت تلك المدونات عبارة عن سفر من أسفار الكتاب المقدس (سفر المزامير) كتب بلغات مختلفة هي العبرية واليونانية والكلدانية والعربية فضلا على ماتركه العلماء العرب من ارث حضاري هائل في بلاد الاندلس ، ومنخلال هذه المدونة بدأ تعليم الأوربيين اللغة العربية بشكل واسع لأن مقاربة نص واحد في الكتاب المقدس بين لغات مختلفة سهل قضية تعلم العربية من خلال إقامة علاقة بين النصوص المترجمة والنصوص المكتوبة بلغات قديمة ، وما تزال هذه المدونة محفوظة في مكتبة نيويورك [٨] ، وبعد تأسيس الجامعات في أوربا أصبحت مدونات جيوفاني التي عضدها التعليم الجامعي للغة العربية الأساس المعتمد في تعلّم هذه اللغة في أوربا ، وإذا كانت قضية تعلّم العربية في أوربا قد اتخذت منحى انسانيا تبشيريا من خلال جيوفاني فانها اتخذت اطارا حضاريا لنقل العلوم والمعارف المختلفة عند الباحثين والعلماء والمفكرين وكانت السلطات في أوربا تحاول المساهمة في الجانبين العلمي والابداعي المترجم ولذلك دعمت الجامعات التي تدرس

---

[٨] نفسه – ص١٦٣

اللغة العربية لأنها كانت تمثل بالنسبة للأوربيين لغة الحضارة والحداثة آنذاك ، وقد برز بسبب هذا التركيز على اللغة العربية عدد من المهتمين بالثقافة العربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ومنهم (أوغستينو بستتياني ١٤٧٠-١٥٣٦م) ويوهان البرشت (١٥٠٦- ١٥٥٧م) وتصف المدونات التاريخية هذه الشخصية بأنها من الأسماء المهمة التي برزت في مجال دراسة الأدب العربي وتعد صاحبة أثر كبير في أوربا ، اذ كان يوهان يحتفظ بعدد لابأس به من المؤلفات العربية وقام بدراستها وتصنيفها حسب موضوعاتها لكي تصبح هذه المدونات فيما بعد حجر الزاوية للمكتبة الحكومية في مدينة منشن [٩] ، وبعد توسع الغرب في دراسة اللغة العربية بدأت صورة الشرق في الثقافة الغربية تأخذ طابعا نمطيا يشير الى ان الشرق استطاع بناء حضارة هائلة لها مقومات المدنية والاستقرار على الرغم من البعد الصحراوي غير المستقر للحياة العربية القديمة ، أمّا الجانب الروحي فقد امتاز بسمات مختلفة لعل أبرزها تلك المتعلقة بالشعر والسحر والامتداد الكوني اللامتناهي، ولهذا فإن الشرق في نظرهم يمثل عالما مليئا بالأسرار كما إنه محاط بالغموض ولكن هذا الغموض ينطوي على أرض سعيدة وعالم لا تذبل فيه الزهور تحت سماء زرقاءصافية وينابيع تعطي شراب الخلود .[١٠]

---

[٩] نفسه -- ص١٧٤ .

[١٠] عفيف بهنسي -- أثر العرب في الفن الحديث – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب – دمشق – ١٩٧٠ – ص٤٩ .

كانت هذه النظرة النمطية الى الشرق في الفكر الغربي قد تولدت بسبب مجموعة من العناصر التي تقع في صميم العلاقة بين السلطة والناس وطريقة إدارة السلطة في العصور الاسلامية حيث اعتقد الغرب ان الحاكم العربي يمتلك سلطة مطلقة تتيح له الهيمنة على الثروة في أي مكان من مملكته ، وجاءت هذه النظرة وترسخت من خلال مجموعة من المؤلفات العربية التي نقلت الى اللغات الأوربية ومنها الف ليلة وليلة ومقامات الحريري والشعر العربي في العصر الجاهلي خاصة ، اما في المجالات العلمية فقد ترجمت المؤلفات العربية الاسلامية الى اللغات الأوربية واللاتينية ، اذ كتب العلماء العرب في الطب والرياضيات والكيمياء وغيرها، وكان ابن سينا والرازي وابن رشد من أكثر العلماء الذين أثارت مؤلفاتهم اهتمام الغرب ، ويصف المؤرخ الألماني (هونك) الكيفية التي نظر فيها الغرب الى الكتب العربية في الطب بعد ترجمتها الى اللاتينية قائلا : "لقد استقبلت كتب هؤلاء في الطب بثقة تفوق تلك التي كانت لأبوقراط وجالينوس ، ونالت حظوة قصوى عند الناس الى درجة إنه أذا ما حاول أحد ممارسة الطب ، كان عليه الاعتماد على كتب هؤلاء ، والاّ اتهم بمحاولة الاضرار بالمصلحة العامة " [١١] ،

لقد ظهر التأثير المشرقي بشكل واضح في الثقافة الأوربية في القرن الثامن عشر في اشعار ومؤلفات الشاعر الألماني غوته اذ وجدت الأجواء المشرقية الدينية والاسطورية طريقها الى الشعر الألماني والمسرحية الألمانية ، ففي جانب الشعر اتضح الأثر المشرقي بشكل جلي في ديوان

---

[١١] زغريد هونك – ص١٩.

غوته (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) ، وكان غوته قد وضع هذا العنوان على غلاف ديوانه باللغة العربية ، ويذهب الدكتور عفيف بهنسي الى ان غوته كتب هذا الديوان بعد اطلاعه وقراءته القرآن الكريم وألم بأشعار حافظ الشيرازي واطلع على تاريخ الرسوم العربي وقصة الاسراء ودرس بطولة صلاح الدين ، لهذا تضمن الديوان كثيرا من الآيات الكريمة بل إنهيقول في بعض أشعاره : " إذا كان الاسلام معناه التسليم لله فاننا لا محالة أجمعين نموت ونحيا مسلمين " .[١٢]

أمّا في المجال المسرحي فقد كتب غوته مسرحية محمد عام ١٧٧٣ وفيها يناجي الشاعر الرسول العربي محمد (ﷺ) في لمحة افتراضية وقد خلا بنفسه ليلا في جوف البادية ، وكان الشاعر بذلك يصور آية من سورة الانعام في دحض الشك ، وبعد المناجاة يجري الشاعر حوارا بين الرسول محمد (ﷺ) ومرضعته حليمة السعدية وثمة حوار آخر بين الامام علي وفاطمة الزهراء (عليهما السلام) .[١٣]

إن هذا التواصل الروحي والمادي بين الثقافة العربية والثقافة الاوربية والألمانية خاصة يشير الى ان الغرب اطلع بشكل مباشر على الثقافة العربية وتعمق في خصائصها ونهل من تنوعها ، وكانت المطابع الالمانية من أوائل المطابع في العالم التي نشرت القرآن الكريم والكتب الأدبية العربية في مجال الشعر والنقد خاصة .

---

[١٢] عفيف بهنسي – ص٥٦ .

[١٣] نفسه – ص٥ .

حدث الاطلاع الاوسع على الثقافة العربية عندما اضطلع الالمانيان شبيتا وفولرز بمهمة ادارة دار الكتب الخديوية ، وكان لشبيتا آراء في الفلسفة الاسلامية ومواقف خاصة من حركة الفلاسفة المسلمين ، فعلى سبيل المثال كان شبيتا يرى ان انتصار الأشعرية مثل تراجعا في التفكير الفلسفي في الاسلام ، كما وجد في المعتزلة انهم احرار الفكر في الثقافة الاسلامية ، وانصب جل اهتمامه على تطور وانحطاط الحضارة العربية حتى وفاته عام ١٨٨٣م .[١٤]

وقد توج بروكلمان هذا الجهد بموسوعته الكبيرة (تاريخ الأدب العربي) الذي صدر في المانية أول مرّة في عام ١٨٩٨م وبعدها في عام ١٩٠٢م ومن عام ١٩٣٧ م حتى عام ١٩٤٢م صدر الكتاب بثلاث مجلدات كبيرة وكان في حينها يعد أوسع ثروة توثيقية وتحليلية ونقدية للأدب العربي تناولت العصر الجاهلي والعصور القديمة الأخرى لذلك طلبت جامعة الدول العربية بعد عام ١٩٤٨ م الاذن من جهة الاصدار لترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية .

ومع بروكلمان كانت هناك شخصية المانية أخرى اهتمت ودرست الادب العربي بعمق وهذه الشخصية هي آرنست فيشر الذي اختير عضوا في مجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٣٤ م تقديرا لجهوده العلمية في دراسة اللغة العربية والادب العربي .[١٥]

---

[١٤] نفسه – ص٥ .

[١٥] عمر عبيد حسنة – الحداثة الحضارية – المكتبة الاسلامية – ٢٠٠١ – ص٣٢ .

لم يعد هناك من شك ان الألمان اطلعوا على معظم الاتجاهات النقدية والفلسفية العربية والاسلامية ، وحاولوا الافادة منها وقبل ان نطرح كيفية الافادة من النقد العربي القديم لابد من طرح الاسس والمقومات التي استندت اليها النظرية النقدية الألمانية الحديثة بشأن التلقي .

أسس النظرية الألمانية ومقوماتها :

تستند نظرية التلقي الألمانية كما يحددها معجم هاوثورن على مجموعة من الأنظمة المعرفية المجاورة أوالموازية للنقد الأدبي وهذه الأنظمة تتوزع على النحو الآتي :

١- علم الجمال

٢- الفلسفة

٣- علم النفس [١٦]

وأرى انه من الممكن إضافة عنصر رابع هو (النسق الثقافي) الذي يوجه عملية القراءة ، وذلك طبقا لما طرحه منظرا التلقي وهما ، ولفغانغ ايزر ، وهانس روبرت ياوس ، حيث اعتمدا على تاريخ القراءة وليس على تاريخ الأدب وعلى ما يمكن أن يضيفه وعي القارئ وثقافته على النص وهذا ما يعرف بالقراءة الانتاجية ، وترى هذه القراءة أن القرّاء بأدواتهم ووعيهم الثقافي لهم الحق في اضفاء أي معنى تلزمه حاجاتهم على نص معين .[١٧]

---

(١٦) Hawthorn Jeremy a concise glossary of coutemporary literary theory clondon Edward Arnold 1973 p187

(١٧) سامح الرواشدة – اشكاية التلقي والتأويل – منشورات أمانة عمان – ٢٠٠١ – ص٨ .

وعلى هذا الاساس يمكن القول : إن نظرية التلقي والقراءة تشير الى مجموعة من النقاد الذين يدرسون بصورة واضحة ليس العمل الأدبي المعين بل القرّاء الذين يقرأون ذلك العمل الأدبي ، وفي هذا المجال اختلفت عملية القراءة عن الدراسة النقدية لأن الدراسة عملية لاحقة للقراءة وهي مقومة ومحللة لما ينتج عن القراءة وأثرها .

كانت نظرية التلقي قد تزامنت أو أعقبت ظهور نظرية نقد استجابة القارئ وهذه النظرية تعود الى النقاد الأمريكيين وجهودهم الفردية التي استندت الى المهارات الذاتية في مجال القراءة ، ولكن لم يكتب لهذه النظرية النجاح بسبب عدم وجود منهجية في طريقة معاينة القارئ والتشتت الذي أصاب المنظرين لها ، في حين استطاعت نظرية التلقي التطور والاستمرار الأمر الذي يمكّننا من القول ان نظرية التلقي عكس نظرية استجابة القارئ استطاعت ان تعبر عن تماسك ووعي جماعي بوصفها رد فعل للتطورات العقلية والأدبية في المانيا الغربية في الستينات وأفادت من نظرية استجابة القارئ وسلبياتها حين استندت الى مفاهيم اساسية في الفلسفة ونظرات خاصة في موضوعة الجمال والتحليل النفسي [١٨].

ان ما طرح سابقا يشير الى ان نظرية التلقي عدت تطبيقا تاريخيا لشكل من أشكال نظرية استجابة القارئ التي أخفقت في الاستمرار الامر الذي جعل اقتراح ياوس في مقالته الشهيرة عن تاريخ الأدب يعد شروعا في

---

[١٨] بشرى موسى صالح – نظرية التلقي أصول وتطبيقات – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – ٢٠٠١– ص٣٣ .

النظر لعملية التلقي من خلال دراسة التاريخ الادبي ، حيث رأى ان هذا التاريخ يمثل تحديا للنظرية الأدبية وكان هذا الطرح هو الانطلاقة الجديدة في الدراسات الأدبية التي اعتمدت على التلقي ومغايرة النظرة السابقة للنقد والأدب التي انطلقت من المؤلف والنص ، حدث ذلك عام١٩٦٧م وهي بداية البحث عن دور القارئ في خلق النص، وطبيعة تلقيه لنص ما ، ويذهب ميخائيل ريفاتير في هذا الصدد قائلا "ليست الظاهرة الأدبية هي النص فقط ، ولكنها القارئ أيضا بالاضافة الى مجموع ردود فعله الممكنة على النص وعلى القول وانتاجية القول ".[١٩]

كما بحثت نظرية التلقي بعد ذلك في نقد استجابة القارئ وحللت منطلقاته وتوجهت بالنقد لأفكاره وطرحت رؤية بديلة لمرتكزاته مع الاحتفاظ بعناصره الايجابية ، لهذا انطلق فهم التلقي المشترك مع نظرية استجابة القارئ لدى منظريه من حقيقة ان الانساق نفسها مؤلفة بوساطة فعل تأويلي فكيف لايحرض النص القارئ على التأويل والاستجابة ، ويرى ستانلي فيش في هذا الصدد ان المعنى المحايث لافي النص بل في القارئ أو بالاحرى في الجماعة القارئة ويضيف ان هذا المعنى موجود في الاجراءات التي ترى فعالية القارئ في مركز اهتمامها لانها لاتعد مفضية الى معنى بقدر ما تكون حاملة له .[٢٠]

---

[١٩] جان لوي دوفان – نظريات التلقي – تر منذر عياشي – مجلة السياسة – الكويت – ع٣٦-١٩٩٤- ص٢١٨ .

[٢٠] تيري انجلتون – مقدمة نظرية الأدب – ترمحمد درويش- دار الشؤون الثقافية بغداد -١٩٨٨- ص٥٦ .

واذا ما حاولنا أن نحدد الأسباب التي جعلت التلقي نظرية أكثر تماسكا من نقد استجابة القارئ يمكن لنا أن نعاين الاساس الفلسفي للتلقي ونحدد امكاناته بوصفه الأداة التي مكنت النظرية من التطور والاستمرار وكانت الفلسفة الظاهراتية هي الاساس المعتمدة للتلقي من خلال مفهومي المتعالي والقصدية .

ومفهوم المتعالي عند هوسرل يتجه الى ان ادراك معنى الظاهرة قائم على الفهم ونابع من الطاقة الذاتية والتفسير الفردي الخالص وبعد هوسرل طرح رومان انغاردن فكرة المتعالي من خلال البعد الاجرائي لهذا المفهوم حيث عدّ الأدب ظاهرة تقوم على بنيتين الأولى ثابتة نمطية وهي الفهم وأخرى متغيرة مادية وهي النص والأساس الاسلوبي للعمل الادبي وبهذا الشكل يتحدد المعنى من خلال تفاعل بنية النص وفعل الفهم .

أما القصدية فتعني ان المعنى يتشكل من خلال الفهم الذاتي والشعور القصدي الآني ويكون دور القارئ فيه التهيئة الذاتية لكشف عناصر العمل الادبي وجلب قناعات مسبقة أو خلق سياق به سلسلة من المعتقدات والتوقعات التي يتم من خلالها تقييم مختلف سمات العمل .[٢١]

أن هذه المسألة تشير الى ان إهتمام نظرية التلقي انصب بشكل جوهري على مجموعة من العناصر وليس على استجابة قارئ مفرد في زمن بعينه وحده ، بل الاستجابات المتغيرة التفسيرية والتقيمية لجمهور القراء على مدى الزمن ، وذهب ياوس في هذا الصدد الى القول : انه على الرغم من

---

[٢١] محمد مبارك استقبال النص عند العرب المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٩٩- ص١٧٦ .

انه ليس ثمة معنى موضوعي لنص ما ، الأ انه يحتوي على تشكيلة من الملامح التي يمكن تمييزها ، أما بالنسبة لاستجابة قارئ بعينه فهي تشكل لهذا القارئ معنى النص من خلال صفاته الجمالية التي تعد النتاج الرابط بين أفق التوقعات والتأكيدات التي تحملها تلك التوقعات وخيبات الأمل والتفنيدات والصياغات المعادة لهذه التفنيدات ، وقد أحال نقد استجابة القارئ كل هذه العناصر الى اللحظة التي يكون فيها القارئ في وضع تحد من قبل ملامح النص نفسه [٢٢] ، وبما أن توقعات القارئ اللغوية والجمالية تتغير عبر الزمن فان القراء والنقاد اللاحقين لا يكون لديهم منفذ الى النص فحسب بل الى الاستجابة المنشورة للقراء السابقين كذلك ، وهنا يتطور تقليد تاريخي للتفسيرات والتقييمات النقدية لعمل أدبي ما ، وكانت هذه المسألة هي التي دفعتنا الى اضافة النسق الثقافي الى نظرية التلقي.

من كل ما تقدم يمكن تلخيص نظرية التلقي على النحو الآتي :[٢٣]

١- القارئ هو مانح النص قيمته

٢- عملية القراءة مسؤولة عن عمليات تأويل النص .

٣- القارئ هو المنتج للدلالة عليه فعلاقة الدال بالمدلول ليست وحيدة الجانب .

---

[٢٢] حسن البنا عزالدين - قراءة الاخر قراءة الأنا - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة ٢٠٠١ - ص٢٣ .

[٢٣] وليد قصاب - مناهج النقد الأدبي الحديث دار الفكر - دمشق - ٢٠٠٧ ص٢١٨ .

٤- المعنى في النص الأدبي ليس نهائيا .

٥- التراكم التاريخي للقراءة مسؤول عن تطور النوع الأدبي .

٦- هناك نصوص قرائية تستهلك بالقراءة فلا يعاد تحققها .

القراءة والتلقي في النقد العربي القديم والنظرية الالمانية :

كانت التصنيفات الأولى التي أجراها الأصمعي في كتابه فحولة الشعراء أول قراءة يمكن عدّها منهجية للشعر العربي فقد كان الاختيار مبنيا على العرف الخاص بالقواعد الجمالية التي جعلها العرب أسسا فنية تؤدي الى جعله مقبولا ومستحسنا في الذائقة ، وقد وردت تلك الملاحظات الفنية في مناسبات مختلفة منها رأي عبد الملك بن مروان بقصيدة الراعي النميري حين أنشد الخليفة بن مروان قائلا :

أخليفة الرحمن انا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيـــلا

فقال له عبد الملك : " لبس هذا شعرا هذا شرح اسلام وقراءة آية " [٢٤]

وفي هذا الرأي اتخذ التلقي مسارا خاصا في رؤية الابداع وميز بين اللغة اليومية الاعتيادية واللغة الأدبية التي تثير الخيال لدى المتلقي وتجعله يتفاعل مع النص ، وقد حدد آيزر مستوى هذه الاستجابة وكيفيتها ومقدرتها في تمييز النص الأدبي من غيره فهو يرى ان القارئ يستعين في ربطه بين

---

[٢٤] محمد بن عمر المرزباني – الموشح – تح علي محمد البجاوي – القاهرة -١٩٦٥ ص٢٤٩ .

التمظهر الخطي للنص وظروف القول بمعلومات خارج لغوية بالمعارف الخاصة بطبيعة النوع الخطابي وبالتحديدات الزمانية والمكانية للنص. [٢٥]

وكانت بنية الشعر ولغته في هذا التحديد هي التمظهر الخطي وبنية النص القرآني هي المعلومات خارج لغوية والمعارف الخاصة وموقع الخليفة عبد الملك بن مروان هو التحديد الزماني والمكاني .

من هنا يمكن القول : إن دخول الاصمعي الى اتجاهات القراءة من خلال كتاب فحولة الشعراء لم يكن مجردا من القواعد والأصول التي تميز الشعر من غير الشعر ومن المقدرة على تمييز الشعراء الفحول من غير الفحول ، لهذا نجده انه استطاع أن يؤسس لمجموعة من المقاييس التي تصنف الشعراء وتضعهم في مراتب خاصة ومنها السبق والابداع في الصورة والمعنى و الكثرة ومقدرة الشاعر على تجسيد اللوحات المختلفة في القصيدة الجاهلية بقوله " طريق الشعر اذا أدخلته في باب الخير لان ، الا ترى حسان كان علا في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي وحمزة وغيرهم لان شعره وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول من مثل امرئ القيس وزهير والنابغة " [٢٦]، وكان طريق الفحول هو الطريق الذي يتطرق فيه الشاعر الى صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، وتلك الأسس تمثل واحدة من القراءات النقدية للنص الشعري

---

(٢٥) W iser – I acte do loefure bruxels maryada 1985

(٢٦) أبوسعيد عبد الملك بن قريب – فحولة الشعراء – تح محمد عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزيني – القاهرة ١٩٥٣ ص٤ .

العربي القديم ، لكن هذه القراءة لم تكن نهائية لأنها استثمرت العرف العربي في تقويم جماليات الشعر . تطورت بعد ذلك قراءة النقاد العرب للقصيدة اذ مثلت المختارات الشعرية والمنتقيات التي تم توثيقها بداية لفكرة التلقي بمفهومه الأولي وتعززت هذه المختارات بدراسات أعقبت ما طرحه النقاد العرب بشأن الأسباب التي دعتهم لاختيار هذه النصوص دون غيرها أو شرح وتحليل نصوص شاعر بعينه دون غيره فحين ذكر ابن رشيق في كتابه العمدة ان المتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس فانه استند بذلك الى عدد النقاد والدارسين القدماء الذين تناولوا شعره [٢٧] ، ويذكر ابن قورجة ان أكثر من ٢٠٠ كتاب كتبت بشأن المتنبي وشعره مابين مطول ومختصر [٢٨] ، كما يعد شرح ديوان الحماسة لأبي زكريا يحيى ابن علي التبريزي الشهير بالخطيب واحدا من القراءات الأولية التي عرفها النقد العربي القديم اذ قدّم لكتابه موضحا أسباب اختياراته الشعرية قائلا :"ان أهل الأدب انما يتباينون به في درجاتهم ويتفاخرون به في طبقاتهم " [٢٩] ، وهذا التباين يشير من وجهة نظر الخطيب الى ان هناك قراءات مختلفة لقصائد الشعراء العرب القدماء ، أما الأصمعيات فهي الأخرى قد عبرت عن قراءة خاصة للشعر العربي القديم ،والملاحظ ان هذه المدونة لم تبدأ بالانتشار في العصر

---

[٢٧] ابن رشيق القيرواني – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – تح محمد محي الدين عبد الحميد – القاهرة – ج١ ١٩٥٥ص٢١٢ .

[٢٨] ابن قورجة – الفتح على أبي الفتح – تح عبدالكريم الدجيلي– بغداد ١٩٧٤ ص١٢ .

[٢٩] أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي – شرح ديوان الحماسة – تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام محمد هارون ج١ – القاهرة – ١٩٥٥ص١٢.

الحديث الاّ بعد أن طبعت في عام ١٩٠٢م في مطبعة لايبزج في المانية [٣٠] ، وينطبق الحال نفسه على المفضليات فهي الأخرى طبعت في لايبزغ عام ١٨٨٥ م وقد اطلعت على هذه النسخة شخصيا في جامعة فرايبورغ ولاحظت شروحات الأبيات المختارة وتعليق النقاد العرب عليها مثل الاصمعي والاخفش وأبو عبيدة بن معمر .[٣١]

وفي كتاب شرح أشعار الهذليين للسكري هناك احالات قرائية للنقاد العرب الذين سبقوا السكري وهناك تعدد في التأويل ومحاولة لملامسة القصد والمعنى في قصائد الشعراء حيث الاحالات الى نقاد سابقين مثل الاصمعي والاخفش وابو عبيدة بن معمر وغيرهم ، وهذه الاحالات تشير هي الأخرى الى تعدد القراءة والى تباين في فهم وشرح البيت الشعري العربي سواء أكان في عصر الجاهلية أم في العصر الأسلامي .[٣٢]

لقد استمرت عملية جمع الاشعار وتصنيفها في العصر العباسي حيث قام عدد من الشعراء بجمع وتصنيف وتبويب القصائد القديمة ليس على اساس الجانب التاريخي بل على أساس غرضها ، وكان عدم الاعتماد على تاريخ القصائد بوصفه معيارا وحيدا للجودة يعني أن تحكم الذائقة النقدية ولو

---

[٣٠] ابو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي – الأصمعيات اختيار الأصمعي – تح محمد أحمد عساكر وعبد السلام محمد هارون – دار المعارف – مصر ١٩٦٤ ص٩

[٣١] أبو العباس المفضل بن محمد بن علي الضبي – المفضليات – مطبعة لايبزغ – المانيا – ١٨٨٥ص٣٥ .

[٣٢] أبوسعيد الحسن بن الحسين السكري – شرح أشعار الهذليين – تح عبدالستار أحمد فراج – دار النهضة – القاهرة – د.ت – ص١١.

بشكلها الانطباعي في قراءة النصوص قد بدأ يؤثر في قراءة النقاد العرب الشعر والتعامل معه على أساس الجودة والتاريخ . وعلى وفق هذه الرؤية قسم محمد بن سلام الجمحي الشعراء على الطبقات وكان ذلك التقسيم يعتمد المبادئ الآتية [٣٣] :

١- كثرة الشعر

٢- تعدد أغراضه

٣- جودته

ولم تكن تلك التصنيفات الأسس الوحيدة التي اعتمدها النقد العربي القديم في قراءة النصوص الشعرية العربية اذ تولدت افكار وآراء مختلفة اهتمت بالتلقي ومن هذه الأفكار ما عرف بمفهوم (مقتضى الحال) ، وينقل سيبويه في الكتاب في باب عدة ما يكون عليه الكلم ما نصه : "وزعم الخليل أن هذا الكلام لقوم ينتظرون الخبر .[٣٤]

وبعد الخليل دعا الجاحظ الى مطابقة الكلام لمقتضى الحال وقال "ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل " .[٣٥]

---

[٣٣] محمد بن سلام الجمحي - طبقات الشعراء - مقدمة محمد مندور - تح عمر فاروق الطباع - دار الأرقم بيروت ١٩٩٧ص٢٦ .

[٣٤] أبو بشر عمرو بن عثمان المعروف سيبويه - الكتاب - تح عبد السلام محمد هارون - القاهرة ١٩٦٦ج٤- ص٢٢٣.

[٣٥] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - الحيوان - تح عبدالسلام محمد هارون - القاهرة - ١٩٣٨ ج٣- ص٣٦٩.

طور النقاد العرب بعد الجاحظ هذا المفهوم من جانبه النفعي الى الجانب الجمالي وكان ذلك على يد السكاكي الذي رأى :"ان مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى لا انطباقه" [٣٦] .

ان هذا التطور يؤكد أهمية الأسس التي تجلت في آراء الجاحظ وما فتح بها من آفاق مهمة للنقد العربي الأمر الذي جعله من أوائل النقاد العرب القدماء الذين أولوا القراءة اهتماما خاصا ،وكانت فكرة البيان عنده لها صلة كبيرة بالتلقي فالبيان كما يرى " اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع الى حقيقته " [٣٧] وفي هذا الكتاب(البيان والتبيين) ينصح الشعراء والناثرين قائلا : " فان أردت ان تتكلف هذه الصناعة وتنسب الى هذا الأدب فقرضت قصيدة أو حبّرت خطبة أو ألفت رسالة فاياك أن تدعوك ثقتك بنفسك ، أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك الى أن تنتحله وتدعيه ، ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب فان رأيت الأسماع تصغي له والعيون تحدق اليه ورأيت من يطلبه و يستحسنه فانتحله " .[٣٨]

كما رأى الجاحظ وجود علاقة كبيرة بين الألفاظ والأنساق وتوصيل النص بقوله : "إنك ان أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف

---

[٣٦] أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي – مفتاح العلوم – مطبعة البابي الحلبي وأولاده – القاهرة –١٩٦٣–ص٨٠ .

[٣٧] أبو عثمان الجاحظ – البيان والتبيين – تح عبدالسلام محمد هارون – مكتبة الخانجي القاهرة –١٩٨٥ص٧٥ .

[٣٨] نفسه – ص٢٠٣ .

المؤنة على المستحقين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم " .[٣٩]

وبشأن وصفه بعض الآيات الواردة في القرآن الكريم ومنها { وأخي هارون أفصح مني لسانا فارسله معي رداءا يصدقني } وقال { ويضيق صدري ولا ينطلق لساني }

علق الجاحظ على هاتين الآيتين الكريمتين بقوله : " رغبة منه في غاية الافصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الاعناق اليه أميل والعقول عنه أفهم والنفوس اليه أسرع ،وان كان يأتي من وراء الحاجة ويبلغ على بعض المشقة " .[٤٠]

واذا ما دققنا في قول الجاحظ السابق نجد أنَّ العامل النفسي عنده مهم في عملية التوصيل وان الجمالية ضرورية في التلقي أيضا ، واذا ما عدنا الى الأسس والمقومات التي شكلت نظرية التلقي الألمانية نلاحظ ان علم النفس كان واحدا من مرتكزاتها الثلاثة حسب تصنيف معجم هورثرن ، أما عنصر الفلسفة فلم تكن الفلسفة الاسلامية قد تبلورت بعد ولم تصبح منظومة فكرية كما كانت الفلسفة الاغريقية التي سبقتها من حيث التكامل والشمول والتنظيم ، لذلك لم يكن بامكان الجاحظ أو غيره أن يعتمد على فلسفة أوينطلق من أسس فلسفية لمعاينة التلقي ، وهذه المسألة هي التي جعلت

---

(٣٩) نفسه – ص١١٤ .

(٤٠) نفسه ص٧ .

التلقي في النقد العربي القديم أقل تماسكا وأضعف ادراكا لمهمة المتلقي في العملية الابداعية ولكن مع ذلك كانت هناك آراء فلسفية لفلاسفة عرب ومسلمين استطاعت أن تنظّر لفكرة الفن الاسلامي وتجد فيه طابعا ذاتيا كما في طروحات الاحتمالية المثالية التي ترى أن العلاقة السببية بين الظواهر ليست نابعة من الواقع الموضوعي بحد ذاته ، أما التخيلات عن السببية فهي نابعة من عادات البشر[٤١]". وبشأن الجانب الجمالي فقد تصدى الجاحظ أيضا لهذا الموضوع ونلاحظ ذلك في معرض دفاعه عن أهمية الألفاظ في التلقي حين نقل قول أحد الربانيين في بعض مواعظه التي يقول فيها : " أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فان المعنى اذا اكتسي لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ، ومنحه المتكلم دلا متعشقا ، صار في قلبك أحلى ، ولصدرك أملا" [٤٢]

إن مزية هذا التحليل كشف الأسس التي أراد الجاحظ اعتمادها في الجانب الجمالي للقراءة والتلقي وهي واحدة من طروحاته بشأن هذا الموضوع وهنا يمكن تحديد اتجاهين في تلك الطروحات .

الاول : ان الجاحظ وجد أن هناك علاقة بين المنتج والنص والمتلقي وهذه العلاقة هي التي تكمل العملية الأدبية .

الثاني: ان الجاحظ مرّحَل عملية الاستقبال الجمالي لدى القارئ وهاتان الخاصيتان موجودتان في نظرية التلقي الالمانية .

---

[٤١] أوفسيانيكوف وسميرنوفا – موجز – تاريخ النظريات الجمالية – تعريب باسم السقا – دار الفارابي بيروت ١٩٧٩ص٥ .

[٤٢] الجاحظ – البيان – ص٢٥٤ .

أما بشأن كسر التوقع فان الجاحظ تطرق الى هذا الموضوع من خلال مفهوم الشيء من غير معدنه الذي ابتكره بقوله "الشيء من غير معدنه اغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم ، كان أطرف وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع " .[٤٣]

استعمل الدكتور محمد مبارك هذه المسألة لكنه لميحلل ابعادها ومراحلها ولو دققنا في هذا الموضوع نلاحظ ان التلقي عند الجاحظ يمر بالمراحل الاتية :

١- الغرابة او الانزياح عن المألوف بعد تعرف القارئ على النص

٢- الخيال

٣- شد المتلقي

٤- الجمال

٥- تحقيق الأثر

واذا ما دققنافي طروحات آيزر و رومان انجاردن وهو من النقاد والفلاسفة الألمان الذين اشتغلوا على التلقي بعد آيزر نجد انهما يمرْحلان عملية التلقي الجمالي على النحو الآتي :[٤٤]

١- التعرف من جانب القارئ على النص بوصفه يمتاز بالغرابة .

---

[٤٣] نفسه – ص٨٩ .

[٤٤] روبرت هولب – نظرية التلقي – تر عز الدين اسماعيل – النادي الثقافي – جدة ١٩٩٤- ص٢٠٣.

٢- الانتقال من النص الى القارئ ذاته وتحقق فعل القراءة والشروع بالتواصل بين النص والقارئ(عبر اثارة مخيلة القارئ) .

٣- شد المتلقي .

٤- الالتفات الى بنية النص البلاغية التي حققت الجمال .

٥- الأثر .

وهنا لا نجد انفسنا اننا بحاجة الى تأكيد جديد ان المراحل التي تم بها معاينة التلقي عند آيزر قريبة من المراحل التي قررها الجاحظ .

وبشأن تعدد القراءات فقد أنضج ابن المعتز فكرة تلقي الخطاب المتعدد من خلال صفة الابداع بذاته وتواصله مع القارئ كما أقر ذلك آيزر من خلال اقامة علاقة بين النص والقارئ ، يقول ابن المعتز : " انصراف المتكلم عن المخاطبة الى الاخبار وعن الاخبار الى المخاطبة وما يشبه ذلك ومن الالتفات ، الانصراف من معنى يكون فيه الى معنى اخر " [٤٥] . وتبنى ابن خلدون هذه الفكرة في مقدمته وبحث في قضية تعدد التلقي من خلال بحثه في علاقة اللفظ والمعنى بقوله : "المعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى صناعة ... وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة " [٤٦].... وهنا

---

[٤٥] عبدالله بن المعتز – البديع – تح أغناطيوس كراتشكوفسكي – مكتبة المثنى بغداد – ط٢ ١٩٧٩- ص٥٨ .

[٤٦] عبد الرحمن بن خلدون – مقدمة ابن خلدون – دار الكشاف – بيروت – دار الكشاف – دت – ص٥٧٧ .

يرى ابن خلدون ان انتقال النص من الكلام الاعتيادي الى الادبي هو الذي ينبغي ان يتبناه الابداع بوصفه أول انتقال نحو الجمال من خلال الدلالة (المعنى) ، ويذهب ياوس في دراسته التجربة الجمالية الى القول " ان أول استقبال من القارئ لعمل ما يشتمل على اختيار لقيمته الجمالية " [٤٧]، ويضيف محللا هذا الموضوع قائلا " ان تحليل التجربة الادبية للقارئ تفلت من النزعة النفسانية التي هي عرضة لها لوصف تلقي العمل والأثر الناتج عنه ، اذا كانت تشكل افق انتظار جمهورها الأول ، بمعنى الانظمة المرجعية القابلة للتشكل بصورة موضوعية والتي تكون بالنسبة لكل عمل في اللحظة التاريخية التي يظهر فيها نتيجة عوامل ثلاثة اساسية هي :

- التجربةالمسبقة التي اكتسبها الجمهور عن الجنس الذي ينتمي اليه النص .
- شكل وموضوعاتية الاعمال السابقة التي يفترض معرفتها .
- التعارض بين اللغة الشعرية واللغة العملية ، أي التعارض بين العالم التخييلي والواقع اليومي "[٤٨].

وقد طرح ابن سينا شروطا قريبة من شروط ياوس لتلقي العمل الأدبي التي ذكرت وشملت سنن البناء والتصور وانتقال اللغة الى الابداع وذلك بقوله : " الهيئات والأشكال الخاصة التي تتشكل فيها أو بها العناصر الأولى

---

[٤٧] روبرت هولب – ص١٥٣ .

[٤٨] أحمد بو حسن وأخرون – نظرية التلقي اشكالات وتطبيقات منشورات كلية الآداب – الرباط – ١٩٩٣ ص٢٩.

أو المادة الخام أو المعاني فتصبح شعرا وينتج من هذا ان حقيقة الشعر الذاتية ليست في مادة المعاني بل في طريقة تخييلها" ، بعد ذلك يشير الى دور المتلقي في التفاعل مع النص وأثر ما يحدثه في النفس بذهابه الى ان المقدمات الشعرية تكون على هيأة أو تأليف يقتضيان تأثر النفس لما فيها من محاكاة أو غيرها [٤٩]، واذا كان النقد العربي القديم قد أهتم بتصورات المتلقي وما يمكن ان يمنحه النص لخياله أو ما يمكن أن يفعّل فيه الخيال من طاقات النص ، فان قضية الأنحياز ونبذ التعصب في القراءة كانت واحدة من الاتجاهات التي اهتمم بها النقد العربي القديم اذ حاول الحاحظ في طروحاته النقدية ابعاد قارئه عن الانحياز المسبق وذلك بقوله : " جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينكوبين المعرفة نسبا وبين الصدق سببا وحبب اليك التثبت وزين في عينيك الانصاف وأذاقك حلاوة التقوى وأشعر قلبك عز الحق ،وأودع صدرك عزاليقين ، وطرد عنك ذلك اليأس وعرفك ما في الباطل من الذلة وفي الجهل من القلة " .[٥٠]

وفي الاتجاه ذاته نجد ان آيزر يرى في عملية الانحياز والتعصب والموقف الفكري عوامل مضرة للقراءة وذلك بقوله :" ان ألوان التحيز تشكل عائقا للفهم أكثر منها معينا عليه لهذا ينبغي أن يكون القارئ أنموذجا للتحررية " .[٥١]

---

[٤٩] أبو علي بن سينا – مع شرح نصير الدين الطوسي – الاشارات والتنبيهات -- تح سيمان دينار -- دار المعارف مصر – ط١– مصر ١٩٦٠ص٥١٢ .

[٥٠] الجاحظ – الحيوان –ج١– ص٣ .

[٥١] روبرت هولب – ص٢٢٩ .

وبشأن مستويات التلقي طرح عبدالقاهر الجرجاني قضية تعدد مستويات التلقي ، وانه ليس القرّاء على مستوى واحد في القراءة من خلال اهتمام منتج النص ببناء الصورة الشعرية ليس لذاته فحسب ، بل بما يمكن أن يتصوره القارئ بقوله : "واعلم ان قولنا : (الصورة) انما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا ، فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة ، فكان تبين انسان من انسان وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك ، وكذلك الامر في المصنوعات ، فكان تبين خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك ، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه وبين الآخر بينونة في عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا :(للمعنى في هذا صورة غير صورته تلك)، وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيء نحن ابتدأناه فينكره منكر ".[٥٢]

وحين نتبع وصف الجرجاني لبناء الصورة نفهم ان قصد الشاعر وارادته لا ينصرفان دائما الى المعنى المجرد أو الغرض بل ينصرفان الى المعنى المبني عليه غيره

والغير عند الجرجاني هو القارئ كما هو عند آيزر الاّ انه يمتاز بمستويات مختلفة فهناك القارئ الناقد وهناك القارئ المؤدلج وهناك القارئ الاعتيادي والقارئ الناقد وغيرهم ، ولكل قارئ مستوى من التلقي يتأثر بما يحمله من أفكار وثقافات ولهذا نجد ان آيزر يصف القارئ الحامل

---

[٥٢] عبدالقاهر الجرجاني – دلائل الاعجاز – تح محمد عبدالمنعم خفاجي – مكتبة القاهرة ط٦-١٩٦٩ – ص٥٠٨ .

للأيديولوجيا بأنه " كلما كان ملتزما بوضع ايديولوجي تضاءل ميله الى قبول بنية الفهم الأساسية القائمة على الموضوع والآفاق التي تنظم التفاعل بين النص والقارئ " .

ويضيف " اذا ما أغري القارئ بالمشاركة في احداث النص لا لشيء الآ ليجد مطالب عندئذ يتبنى موقفا سلبيا أزاء القيم التي لايرغب في التحفظ عليها فعندئذ غالبا ما تكون النتيجة رفضا صريحا للكتاب ومؤلفه " .[٥٣]

لقد مر النقد العربي القديم بمراحل مختلفة بشأن التلقي بدأت من الانطباع الشفاهي الى التحليل وفلسفته وكانت الملاحظات الجمالية تعتمد على موقع النص وأثره في النفس وفي القلب وبذلك عشّق التلقي العربي الاسلامي بين الجانب النفسي والجانب الجمالي كما في قول ابن ابي العتيق وهو يصف شعر عمر بن أبي ربيعة : "لشعره نوطه في القلب ، وعلوقا في النفس " .[٥٤]

والعلوق هنا هو الأثر الذي يتركه النص في المتلقي

أما عبد القاهر الجرجاني فذهب في موضوعة جمالية التلقي الى القول " من المركوز في الطبع ان الشيء اذا نيل بعد الطلب له او الاشتياق اليه ، ومعاناة الحنين نحوه كان نيله احلى وبالمزية أولى فكان موقعه من النفس أجل وألطف وكانت به اضن واشغف " .[٥٥]

---

[٥٣] آيزر – فعل القراءة – ص٢٠٢ – من كتاب نظرية التلقي اشكالات وتطبيقات – ص٢٩ .

[٥٤] أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ح٢١– دار الكتب المصرية – دت – ص٣٠٩ .

[٥٥] عبد القاهر الجرجاني – اسرار البلاغة – تح ريتر – استانبول –١٩٥٤– ص١٢٦.

ويحدد الجرجاني علاقة النص مع القارئ من خلال آرائه بشأن عمق التحليل والكشف عن كوامن الفكرة وراء الظاهر ، بذهابه الى أن التمثيل يقتضي مشاركة القارئ لبنائه واقامة صرح المعنى من خلاله لأنه من دون ذلك يبقى التمثيل بعيدا شاردا غير مدرك وفيه تتفاوت مستويات المتلقين بقوله :" ما طريقه التأويل يتفاوت تفاوتا شديدا، فمنه ما يقرب مأخذه ومنه ما يحتاج الى قدر من التأمل ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه الى فضل روية ولطف فكر " [٥٦] ، وفي هذا عبر الجرجاني عن رأيه بشأن مستويات التلقي أيضا .

لقد حاول بعض النقاد العرب المحدثين اقامة علاقة بين الطروحات النقدية العربية القديمة ونظرية التلقي الالمانية الحديثة ومنهم الناقد المغربي محمد العمري ، فوجد أن فولفغانغ ايزر اعتمد عناصر قريبة من العناصر التي اعتمدها الجرجاني في ادراكه لعلاقة النص بالمتلقي لكن العمري لم يفصل في جوهر العلاقات التي تربط بين طروحات الجرجاني وطروحات أيزر فنظرية التلقي ترى ان الدلالة لايمكن ان تتحقق خارج النسق وذلك بقول آيزر ان الدلالة الشعرية " ما دامت لا تتجلى من خلال الكلمات وما دام مسلسل القراءة لا يمكن أن يتصور في مطابقة العلامات اللسانية المعزولة فان المجموعات الشكلية أو المشكلة هي التي تجعل فهم النص ممكنا "[٥٧]. أما بشأن التوصيل فيذهب آيزر الى أن ' عدم فقدان القدرة على

---

[٥٦] عبد القاهر الجرجاني – اسرار البلاغة – ص٨٣ .

[٥٧] أحمد بو حسن واخرون – ص٣٧ .

التوصيل ظاهرة صحية في النصوص الأدبية اذ ان كثيرا من النصوص تستطيع أن تتكلم وان ماتت رسائلها ولم يعد لمعناها أية أهمية " .[٥٨]

واذا ما دققنا بطرح آيزر السابق بشأن النسق والدلالة نجد ان هذه الطروحات موجودة في نظرية النظم الجرجانية التي اعتمدت المبادئ الآتية:[٥٩]

١- ان النظم عند الجرجاني يعني تعليق الكلم بعضه ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض وهي فكرة آيزر ذاتها .

٢- ان النظم هو الحكم الذي يتبع شروط النحو بقوله : "واعلم أن ليس النظم الاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ".

٣- ان الفرق في الأساليب ليس فرقا في الحركات وما يطرأ على الكلمات وانما في معاني العبارات التي يحدثها ذلك الوضع والنظم الدقيق .

الفلسفة والابداع :

أشرنا سابقا الى ان الفلاسفة والنقاد العرب اهتموا بالجانب الذاتي في التلقي الجمالي وأرجعوا ذلك التلقي الى الجانبين الجمالي والنفسي وفي هذا الصدد أكد ابن سنان الموفف الذاتي من الابداع بقوله : " كل ذلك لما

---

[٥٨] آيزر - وضعية التأويل الفن الجزئي والتأويل الكلي - دراسات سال - المغرب ع٧ص٧٩ .

[٥٩] عبد القاهر الجرجاني - دلائل الاعجاز - ص٦٤ .

قدمته من وقوعه على صفة يسبق العلم بقبحها أو حسنها من غير المعرفة بعلتها أو بسببها ".[٦٠]

وقد كانت طروحات ابن سنان بشأن الجانب الذاتي في القراءة قد جعلت تتناول الجماليات في التلقي وتعدد القراءات تتسع في طروحات المفكرين العرب وأصبحت موضع اهتمام الفلسفة الاسلامية التي وجدت في ثبات الشيء في الفن والابداع من القضايا البعيدة عن حقيقة الشيء لأن كل شيء يتطور ويتغيير مع الزمن وهذا التبدل والتغيير يفرض قراءة جديدة للفكر والابداع وتذهب الدكتورة انصاف الربضي في هذا الصدد واصفة الفلسفة الاسلامية وموقفها من الفن قائلة : "ان كل شيء قابل للتحول بمشيئة الله ضمن المدة وقابل للتحول ضمن النوع ايضا ،وهكذا فلا يوجد وجه او شكل ثابت واكيد ".[٦١]

كما عني الفلاسفة المسلمون بأهمية التلقي ووجدوا ان خلاصة الفن والابداع تكمن في أثره وتأثيره في الناس وقرر الفارابي بشأن هذا الموضوع ان الهدف من الشعر والفن ايجاد تأثير جمالي عند المتلقين بقوله "ان صلة معينه توجد بين الشعراء والفنانين ، ويمكن القول ان مواد انتاجهم الفني مختلفة ، ولكن اشكال هذه المواد وتأثيرها وهدفها واحد أو على الأقل متشابه ويعتمد فن الشعر في الحقيقة على الكلمات ، أما فن الرسم فيعتمد على

---

[٦٠] ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة – شرح عبد المتعال الصعيدي – مطبعة محمد علي صبيح – القاهرة ١٩٦٩– ص٤٥ .

[٦١] انصاف الربضي – ص٥٨ .

الألوان ، وهنا يكمن الفرق بينهما الآ ان تأثير هذا أو ذاك هوواحد يعبر عنه في المحاكاة وهدفهما واحد وهو التأثير على مشاعر الناس وحواسهم " [٦٢].

ووصف ابن سينا تأثير الشعر في المتلقين باشارته ان الانسان يقع تحت تأثيره لأنه يثير الخيال دون أن يعتبر الانسان ما يسمعه حقيقة أم خيال [٦٣].

واذا ماعدنا الى الى نظرية التلقي الألمانية وأسسها نجد انها اعتمدت الجانب الذاتي في التلقي أيضا كما أوضحنا ذلك في سطور سابقة .

وهناك موضوعة أخرى ربطت بين الفلسفة والجمال والجانب النفسي في نظرية التلقي وهي موضوعة كسر التوقع ، وفي هذه الموضوعة أدلى المفكرون العرب القدماء بدلوهم أذ نظر النقد العربي القديم الى هذا الموضوع من خلال ما عرف بمفهوم الاغراب أو الاستغراب وهذا المصطلح ابتكره قدامة بنجعفر وقرنه بالتجديد [٦٤]. وحاول ابن منقذ تطويره على انه يقع في باب الندرة في المعاني [٦٥] . أما حازم القرطاجني فوجد في الاغراب علاقة بين النص والمتلقي وما يمكن أن يبعثه من خيال لدى استقبال النص وذلك بقوله : " الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب الى النفس ما قصد تحبيبه اليها ويكرّه اليها ماقصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه

---

[٦٢] افسيانيكوف – ص٥٧ .

[٦٣] نفسه – ص٥٨ .

[٦٤] قدامة بن جعفر – نقد الشعر – تح كمال مصطفى – القاهرة ١٩٦٣–ص١٧٠.

[٦٥] اسامة بن منقذ – البديع في نقد الشعر – تح احمد بدوي – القاهرة ١٩٦٠– ص١٣٢ .

بما يتضمن من حسن تخييل له ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك . وكل ذلك يتأكد بما يقترن من اغراب فان الاستغراب والتعجب حركة للنفس اذا اقترنت بحركتها الخيالية قوى انفعالها وتأثرها " [٦٦]. وكان اقتران التوقع في نظر الفلاسفة المسلمين هو الأساس في جماليات النص الأدبي لذلكارتبط هذا المفهوم بالقواعد والشروط التي وضعها النقاد العرب للجمال وذلك من خلال مفاهيم الحسن والجودة والجمال والعلوق في النفس والأثر وغيرها .

وانطلقت هذه الجمالية من فكرة البلاغة وذلك منخلال تعريف أبي هلال العسكري الذي يقول فيه : " كلما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن " .[٦٧]

ووضع ابن سنان شروطا للفصاحة اعتمدت على جمالية اللغة والتلقي مبتدئا من الحرف وصولا الى السياق من خلال مجموعة من الشروط حددها ب (٨) عناصر مختلفة منها قوله : "ان الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولاشك أن الألوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة " .[٦٨]

---

[٦٦] حازم القرطاجني – منهاج البلغاء وسراج الادباء – تح محمد الحبيب بن الخوجة – تونس –١٩٦٦– ص٧١ .

[٦٧] أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري – كتاب الصناعتين – تح محمد علي البجاوي القاهرة ١٩٥٢– ص٦ .

[٦٨] ابن سنان الخفاجي – ص٥٤ .

أمّا عبد القاهر الجرجاني فيؤكد وجود تفاوت في النصوص وتلقيها من حيث جماليتها وذلك بقوله : " ومن المعلوم ان لامعنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى : غير وصف الكلام بحسن الدلالة ، وتمامها فيما كانت له دلالة ، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين ، وانق واعجب وأحق أن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الاوفر من ميل القلوب " [٦٩].

ووجد الرازي ان الجمال يكمن في الفصاحة لأنها تزيده زينة تؤثر في السامعين وفرق بين النص المنطوق والنص المكتوب في التلقي بقوله : " ومزية الكلام في الحسن والجمال تارة تكون بسبب الكتابة وتارة تكون بسبب اللفظ من حيث هو هو ، وتارة بسبب اللفظ من حيث له الدلالة الوضعية الأصلية ، وتارة بسبب اللفظ من حيث له المعنوية الفرعية " [٧٠].

ويفرق ابن الاثير بين الجمال والقبح في الألفاظ بقوله : " الألفاظ داخلة في حييز الأصوات فالذي يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح " [٧١].

ويحاكي يحيى بن حمزة العلوي جمالية التلقي عند ابن الأثير عندما حدد شروط التلقي الأفضل وذلك بقوله :" فالألفاظ في سهولة تركيبها وعذوبته

---

[٦٩] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الاعجاز – ص٨٢ .

[٧٠] فخر الدين الرازي – نهاية الايجاز في دراية الاعجاز – القاهرة ١٣١٧هـ ص١١ .

[٧١] ابن الاثير – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ق١– تح احمد الحوفي وبدوي طبانة – مكتبة النهضة مصر –١٩٦٠– ص١١٤ .

وسلاسته بمنزلة الأصوات في طنينها ولذة سماعها ولهذا فانه يستلذ بصوت (القمري)ويكره صوت الغراب "[٧٢].

ان هذا التركيز على جمالية التلقي جعل التفوهات النقدية العربية الجمالية تتفق أو تقترب من النظرية الألمانية بشأن هذا الموضوع لتتكامل عوامل التأسيس النظري العربي في التلقي على الرغم من عدم تماسك النظرية عند ناقد أو مفكر واحد ، ولكن اتجاهات الطرح العربي أشارت بلا شك الى وجود أثر لها في نظرية التلقي الألمانية .

---

[٧٢] يحيى بن حمزة العلوي - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز - مطبعة المقتطف القاهرة -١٩١٤-ص١٠٤ .

الخلاصة :

أظهرت الدراسة أن الثقافة الأوربية القديمة كانت قد تأثرت بالشرق من خلال ما صاغته الأديان من حياة جديدة لتلك المجتمعات وما أسسته من تنظيم اجتماعي شمل مناحي الحياة المختلفة ، ولمّا كان الشرق مصدر الأديان فقد ظل هذا العالم في المخيلة الغربية مصدر الالهام الروحي والثقافي ، وقد انعكس هذا التأثير على الثقافة الأدبية الحديثة في أوربة عامة والمانية خاصة ، اذ أثر الأدب العربي في الأدب الألماني في الشعر والنقد معا كما أثبتنا ذلك في أشعار غوتة وريلكه وغيرهما ، وكانت الأجواء والعوالم المشرقية مصدر الهام كبير للأدب الألماني في عصر النهضة ، واذا كنا قد بحثنا في أثر النقد العربي القديم في نظرية التلقي الألمانية فاننا وجدنا مقاربة كبيرة بين الطروحات النقدية العربية القديمة وتلك النظرية ، وهذه المقاربة لا تعني ان النقاد والفلاسفة الألمان قد استنسخوا التجربة العربية لكننا وجدنا بنية ثقافية أدبية المانية متأثرة بالشرق ووجدنا سعيا حثيثا للاطلاع على الأدب العربي ، ولهذا لا يستبعد أن يكون النقد العربي قد أثر في الأدب الألماني ومنها نظرية التلقي مع اعترافنا أن النظرية الألمانية بشأن التلقي تمتاز بالتماسك والوعي الفلسفي القابل للتطور فضلا عن تشخيصها واستيعابها لمجمل التطور الانساني السابق في مجال النقد وهذا ما يجعلنا نحتمل وجود أثر للتفوهات النقدية المتناثرة للنقد العربي في النظرية الالمانية بسند المقتربات التي ذكرناها سابقا .

هذا فضلا عن قيام الألمان بالحصول على المنجز النقدي العربي الاسلامي منذ القرن الخامس عشر وطباعته منذ وقت مبكر بعد ظهور الطباعة ، من هنا أيضا رجحنا وجود أثر أدبي عربي قوي في نظرية التلقي الألمانية .